أمتع قصص الحب فى الأدب الفرنسى

الأمـــيرة دكليف

PRINCESSE DE CLÉVES

للأســـتاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

كان الحب فى القرن السابع عشر ، قرين البطولة وخدين الشرف ؛ فكان إذا هام فؤاد الفارس بمن أحب ، ولذعه الشوق ودلّهه الحب ، عمد إلى البطولة يجعلها ثمناً لحبه ووسيلة إلى هواه ؛ فإذا أوتى العزم الشديد والقلب الحديد ، ونال طيب الأحدوثة وبراعة الفروسة وشرف النقيبة ، وكان خِلاً لا يُقرع أنفه ولا يُطعن عليه ، مُتّع بالحب ، وذاق مودة الحبيب

والأميرة دكليف تمثل ما ذكرته وتبيّن ما وصفته . ولعل من الخير ، قبل أن نقصها عليك ، أن نتحدث عن مؤلفتها مدام دُلافايّيت Mme de La Fayette ، لأن فى حياتها من الطرافة ، ما فى روايتها من الجمال . والحق أنها كانت من نوادر النساء . تلقت فى يفاعتها وصباها أرفع ثقافة يمكن أن تُتاق فى ذلك الزمان ، فتخرجت على الشاعر المشهور ميناج Ménage فثقّفها وأدّبها . وسرعان ما ظهرت رهافة ذوقها ، ورصانة عقلها ورشاقة كتابتها ، وتخطت العشرين ولمّا تتزوج فاضطرت أن تبحث عن زوج لها فصادفتْ يوماً الكونت دلافايت ، وكان كريم المحتد ، طيب العِرق ، ضئيل العقل ، فتزوج بها وحملها إلى مزارعه فى الضواحى ، يبتغى معها عيشاً يقطّعه بالنعيم . ولم يستطع أن يستهويها فلم ترض عنه ، فهجرته وقصدت إلى باريس ، وهناك صادقت هنريت دانجلترة Henriette d'Angleterre فأحبتها ، فكانت تمشى بلاط لويس الرابع عشر وتقطّع الأيام والليالى معها ، حتى إذا قضت هذه ، حزنت عليها ، وجفت البلاط وأهله ، واعتزلت الناس .

وذاع فى باريس صيت مدام دُلافايت ، وعرفت بذكائها وفطنتها . ولم تلبث أن أصبحت مهوى الأنفس ، وبغية الشعراء والكتاب ، أشباه « هويه Huet » و « ميناج Ménage » و « لافونتين La Fontaine » ولكنها كانت عزوفاً عن كل ضجة ، أنوفاً من الظهور . كانت تحلم بالحب ، وتعجب بالبطولة وكانت تحب الهدوء والسكينة ، تستلقى على سريرها الأرجوانى الموشى ، فيتحلق أصدقاؤها ومُطروها حوله تفتنهم بالسحر والذكاء ، ويفتنونها بالثناء والإطراء

وعرفها « الدوق دُ لارُوشفوكولد Duc de la Rochefoucauld » ، وكان مغامراً ، تتبّع نساء . وكان الناس جميعاً يلهجون بذكره ، وقليل منهم من رآه . فاتصل بها وهى تذرف على الحسين . تُرى أكان صديقها أم عشيقها ؟ ومهما يكن من أمره ، فقد قضى بقية حياته معها . فكان يزورها فى قصرها كل يوم ؛ وكان فى هذا القصر بركة ينصب فيها الماء ، ونافورة تنفر منها إلى الفضاء ، وخلوة مغطاة بالأعشاب والأزهار . فكانت تقضى الليالى والأماسى معه ، تحت العشب والزهر . وقد تأتى ، بعض الأحايين ، مدام دُ سيفينيه Mme de Sévigné فيجتمعون معاً ، يترنون على حفافى سريرها الأحمر الموشى تارة ويتحدثون فى الخلوة المزهرة ، أمام البركة تارة أخرى .

ومن العجيب أنها كانت تنقد حِكم عشيقها أو صاحبها أحدّ النقد . كان لديها نسخة منها . وكان تعلق عليها وتكتب فى الهامش « هذا حق ، وهذا جيد » ، فإذا سخرت منه كتبتْ « هراء ، خلط ، كلام مبتذل ! » . ولقد قرأتْ يوما قوله : « إن ما يسميه الرجال صداقة ، ليس سوى تجارة يكون للأثرة مطمح فيها ومربح . . . » . فكتبت بجانبها : « هذا يصح فى الصداقة العامة ، لا فى الصداقة الحق » . وقرأتْ مرة قوله : « مهما ندر الحب ، فإنه أندر من الصداقة الصحيحة » فقالت : « أعتقد أنهما متساويان فى الندرة ، لأن فى الحق حباً ، ولأن فى الحب الصحيح صداقة » . وكتب « إن الذى يجعل كثرة النساء لا يتأثرن بالصداقة ، هو أن الصداقة تصبح لا طعم لها عندما يذقن طعم الحب » . فأجابته : « لا ، بل لأن فى الحب من كل شىء : فيه من العقل ، ومن القلب ، ومن الجسم » لقد تصادقا ، وأثر كل منهما فى الآخر . لقد قالت : « منحنى الفكر ، ولكنى هذبت قلبه وأصلحته ! »

ومن الطريف أن نتمثل هذا الدوق الحكيم ، ذا الوجه الجهم ، والعينين الذرّافتين ، وبجانبه تلك المرأة اللطيفة ، يؤلفان الروايات ، ويتجاذبان أطراف الأحاديث . يذكران أيام لهوهما ، فيقص عليها مغامراته يوم كان ريان الشباب ، وتحدثه عن سحرها يوم كانت فى رونق الصبى

تلك هي قصة حياتها ، وإنها لقصة تثير الأسى . لقد حلمت بالحب والبطولة فلم تذقهما . وأحبت صديقتها هانريت ففجعها الموت بها ؛ ثم هي تلقي لاروشفوكولد ، وقد تقضى شبابه وذوى غصنه . شدّ ما تمنيا لو التقيا في ريعان صباهما . إذن لروّاها الهوى ولأرته فعلَ السحر .

وفي عزلتها وبجانب لاروشفوكولد ، كتبت مدام دُلافايت روايتها « الأميرة دكليف »

— ٢ —

وقرأ الناس قصة الأميرة ولهجوا بذكرها ، وصارت أحدوثة الكتاب والشعراء والنساء في المجالس والأندية والأسمار . ولقد كانت خليقة بأن تشغل الناس ، لأن الأهواء التي تتضافر فيها على قلب امرأة غض ، فتحيّرها بين زوجها وحبيبها ، تثير الدهشة والعجب . فهنا زوجها جاف القلب كما تراه ، وهناك حبيبها يبدو لعينيها غزلاً بطلاً جميلاً . وأخذ الأدباء يسألون (بوسي رابوتان Bussy Rabutin) نقادة ذلك الزمان عن رأيه فيها . فكانت الرسائل تسرع إليه يسأله أصحابها : « أقرأت الأميرة دكليف ؟ كيف رأيتها ؟ هل أعجبتك ؟ »

إن فيها نزاعاً قوياً بين الحب والواجب لا يقوى عليه النساء ، ونضالاً عنيفاً قد يتخاذل دونه الرجال ، وشرفاً لا يذود عنه إلا من كان ذا عزم ومضاء . وبرغم ذلك ، فإن الأميرة دكليف تغلبت على هواها ولم تضعف في نضالها ، وحافظت على شرفها ونبالتها .

ها نحن أولاء في قصر الملك هنري الثاني ، نجد آنسة صاغها وصقلها الترف ، كان اسمها « شارتر » ، وكانت ذات ذكاء وأناقة وجمال . يتزوج بها الأمير دكليف ، وكان نبيلا مهذباً فيحبها . ولكنه كان يعجز عن إظهار حبه لها ، ولا يبرع في إغرائها وإرضائها ، وكانت حياشة العواطف ملتهبة الإحساس ، تتحرّق على ذواق الحب ؛ هذا الحب الذي سمعت به ، ولكنها لم تعرفه ، ولم تدر كيف يكون ولا أين تجده . وتقام في اللوفر حفلة يرقص فيها النساء والرجال ، تحضرها الأميرة ، ويحضرها الفارس (دُنيمور De Nemours) زين الفرسان ، وحلية الشبان ، وأكثر رجال البلاط لباقة وأناقة . ويلمحها فيشخص إليها بصرُه ويُفتن قلبُه ، ثم يسعى إليها فيتراقصان . وينظر إليها نظرات كلهن شباك وإغراء ؛ فتهتاج وتضطرب ، ثم تسارقه النظرات ، فيخفق قلبها وتحمر وجنتاها ، فتفر منه وقد علمت أنه الحب

وشغل الفارس خاطرها ، فسهرت الليل ، « وليل المحب بلا آخر » . وذرفت الدمع « ودمع العاشق لا ينفد » . إنه فارس فتان ، كيف تصل إليه ، وكيف يضمها بين ذراعيه ؟

وكتمت الأميرة حبها ، وسعت للقياه . ولقد دعيت ليلة إلى حفلة رقص أخرى فاعتذرت عن الذهاب ، لأن فارسها لن يذهب إليها . واندفعت في الحب ، ولكنها أجفلت ذات يوم ، وقد بدا لها سوء ما صنعت . أتخون زوجها ؟ إنه زوجها مهما كان من أمره ، ولا بد من الوفاء . وأفزعتها وخزات الضمير ولذعات الوجدان ، وخافت العار ، ولكن قلبها لجّ في شعاب الحب فضلّ وتاه . كيف ترضى قلبها الجامح ، وكيف تفي لزوجها المطمئن ؟ ولا تسل عن الأرق والسهاد ، والأسى والبكاء ، والحنين والأنين ، والحسرات والآهات . لقد أحبته حباً صرفاً خالصاً . أتجتمع بين حبين ، وكيف تغالب الوله وتدفع الشوق ، وتفر من الحبيب ؟

وقررت بعد عذاب ونصب ، أن تحدث زوجها بحبها . وتسأله إن كان يرى في ذلك حرجاً

وتخلو الأميرة بزوجها . وإنه لمشهد من أروع مشاهد الحب . مشهد فيه من بطولة كورنيل ورقة راسين . إنها مفتونة بفارسها ، والألم يفترسها ، وإنه نحب لها مطمئن إليها . هي تريد أن تخبره لئلا يمس شرفه ، وهو يجهد كل الجهد لينجو من الوساوس ، ويعلم أنها لن تخونه

لقد ظنت أن صراحتها تدفعه إلى الإعجاب بها وإكبارها ولكن هذه الصراحة أنضجت في صدره الحقد والحسد والغيرة فما تكاد تحدثه بطرف خاشع ، وقلب خافق ، وعين دموع ، حتى يشده ويبهت ، ثم يصمت ولا يشكو ، ويأسى بعد أيام فيموت

وها هي ذي الآن وحدها ، قد خلا من كانت تخشى أن يعرّ شرفه . فلتسرع إلى فارسها الجميل ، لتنعم بين ذراعيه ؛ ولكن الأمر ليس كما ظنت . لقد سعى هو إليها ، وتقرب منها فصدت عنه ، وأراد أن يتزوج بها فطردته . لقد اعتقدت أن